الاستيلاء على الطائف

مناوشات مع المضايفي .. ثم أسره :

سعود يعرض افتداء المضايفي .. والصلح :

لما بلغ المضايفي ، أمير الطائف ، دخول المصريين مكة وانضمام الشريف غالب اليهم ، وانضواء كثير من عربان حرب وغيرهم تحت لوائهم ، عرف أن مقامه في الطائف أصبح محفوفاً بالمخاطر ، فغادرها (منهزماً بعياله ونسائه وبعض خيله وما خفّ من أمواله ومتاعه ، ولحق بعبد الله .

وكان خروجه من الطائف في ٢٣ محرم أول سنة ١٢٢٨) .

ويقول مانجان ان طوسون أعدّ لغزو الطائف ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة وستة مدافع ، ولكن انسحاب المضايفي كفى طوسون وأصحابه القتال ، فذهبت فرقة من عسكره ، ومعهم الشريف غالب ، واستولوا على الطائف بسلام.

ويقول بركهارت ان المضايفي لم يستسلم إلى الهدوء والدعة ، بعد خروجه من الطائف ، وكان يرهق حامية الطائف بهجمات متكررة ، ويقطع الطريق إلى مكة ، ويهاجم العساكر المصرية في أماكن وأوقات مختلفة .

ويقول ابن بشر ان المضايفي نزل « رنية » ، بعد خروجه من الطائف ، فانضم اليه جماعة من عدوان وغيرهم من أهل الحجاز ، (وقصد الطائف ، وملك قصرين أو ثلاثة من أعمال الطائف ، ثم نزل قصر « بسل » المعروف .

فحين علم الشريف غالب نزوله ، سار اليه بعساكر كثيرة من الترك وغيرهم

فحصره في ذلك القصر ، وحاصر القصور التي حوله ، وأقـام على ذلك أياماً . ثم إن الشريف استولى عليها ، وقتل كثيراً من قوم عثمان المضايفي وأتباعه ، نحو خمسين رجلاً .

(وهرب عثمان ، فلما وصل قرب « الحزم » ، ظفر به أناس من « العصمة » من عتيبة فأمسكوه وساروا به إلى غالب ، فأمسكه أسيراً ، وكان إمساكه في ١٠ رمضان .

ثم قُتل بعد ذلك .) .

ويعطينا بركهارت التفاصيل الآتية عن مصرع المضايفي :

(لقد استطاع المضايفي الهرب من بسل ، ومعه ثلاثون فارساً من أتباعه ، ولكن فرسه عقرت ، فالتجأ إلى خيمة بدوي من عتيبة ، فأخذه هـــذا إلى الشريف غالب طمعاً بالجائزة . .

تمّ أسر المضايفي في أيلول سنة ١٨١٢ م .

وسلم الشريف المضايفي إلى المصريين، وهؤلاء أرسلوه إلى استانبول، بحراسة فرقة يشرف عليها اسماعيل ، أصغر أولاد محمد علي .

وفي استانبول قطعوا رأسه .

وقد ارتكب الشريف غالب خطأ شنيعاً بما فعله مع المضايفي ، ومهّد بذلك الطريق لمحمد علي ليتخلص من الشريف غالب نفسه . .)

ويقول غوان ان السلطان منح الأمير الفتى اسماعيل رتبة باشا ، لأنه أوصل اليه المضايفي وبشّره بالاستيلاء على الطائف وجلب بذلك السرور . . إلى قلب السلطان . .

ويذكر الجبرتي في أخبار سنة ١٢٢٨ هـ . ما يؤيد رواية بركهارت ، قال :

(قبل خروج الباشا محمد علي إلى الحجاز بيومين ، قدمت هجانة مبشرين بالقبض على عثمان المضايفي بناحية الطائف ، وكان قد جرد على الطائف ، فبرز اليه الشريف غالب وصحبته العساكر التركية والعربان ، فحاربوه وحاربهم ،

فأصيب جواده فنزل إلى الأرض .. فقبضوا عليه ، ولما أحضروه إلى الشريف غالب جعل في رقبته الجنزير .

والمضايفي هذا زوج أخت الشريف ، وخرج عنه وانضم إلى الوهابيين فكان أعظم أعوانهم وهو الذي كان يحارب لهم ويقاتل ويجمع العربان ويدعوهم عدة سنين ويواجه السرايا على المخالفين .. وهو الذي كان افتتح الطائف . وهدم قبة ابن عباس الغريبة الشكل والوصف) .

هل طلب سعود افتداء المضايفي وعرض الصلح :

ذكر ابن دحلان ان الامام سعود،حين بلغه أسر المضايفي، بعث إلى طوسون رسلاً يعرضون عليه مائة ألف ريال فدية له .. والصلح والكف عن القتال ، فتقابل هؤلاء الرسل أولاً مع الشريف غالب وطوسون باشا ، ثم أرسلوهم لمقابلة محمد علي باشا في مصر ، فقال لهم :

أما المضايفي فقد توجه إلى باب السلطنة ..

وأما الصلح فلا نمتنع منه ، ولكن بشروط ، منها :

– أن يدفع لنا كل ما صرفناه على العساكر من ابتداء الأمر إلى وقت تاريخه .

– وأن يأتي بكل ما أخذه من الجواهر والأموال التي كانت بالحجرة الشريفة وكذلك ثمن ما استهلك منها .

– وأن يأتي بنفسه ويتلاقى معي وأتعاهد معه ويتم صلحنا بعد ذلك .

وإن أبى ذلك ولم يأت فنحن ذاهبون اليه ..

فقالوا له : اكتب له جواباً .

فقال : لا أكتب جواباً ، لأنه لم يرسل معكم جواباً ولا كتاباً ، وكما أرسلكم بمجرد الكلام فعودوا له كذلك) .

سكوت ابن بشر ورواية الجبرتي :

لم يشر ابن بشر إلى هـذا العرض في تاريخه ، وما كنا لنكترث لكلام ابن دحلان لغلبة الغرض عليه ، ولكن الجبرتي، المعروف بصدقه وسلامة نيته أشار إلى هذا العرض وربما أخذ ذلك ابن دحلان عنه .

قال الجبرتي ، في أخبار ذي القعدة سنة ١٢٢٨ ، ما يأتي :

(وصلت أخبار بأن سعود الوهابي أرسل قصاداً من طرفه إلى ناحية جدة ، فقابلوا طوسون باشا والشريف غالب ، وقد خلع عليهم طوسون وأخذهم إلى أبيه فخاطبهم وسألهم عما جاؤوا فيه ، فقالوا :

الأمير سعود الوهابي يطلب الإفراج عن المضايفي ويفتديه بمائة ألف فرنسه ، وكذلك يريد اجراء الصلح بينه وبينكم وكف القتال .

فقال لهم : أما المضايفي فإنه سافر إلى الدولة ، وأما الصلح فلا نأباه بشروط) .

ملاحظـــة :

في رواية الجبرتي ان مقابلة الوفد لمحمد علي تمت في الحجاز ، لأن الجبرتي يقول ان طوسون (أخذهم) إلى أبيه .. بينما يذكر ابن دحلان أن اللقاء كان في مصر ..

ونحن نرجح رواية الجبرتي ، وقد أيدتها دائرة المعارف الإسلامية .

وقـد وجدنا رسالة كتبها طوسون إلى أبيه سنة ١٢٢٧ هـ . يقول فيها ان الشريف غالب أبلغه ان الوهابيين يعرضون الصلح واخلاء جميع الطرق الموصلة إلى مكة تيسيراً للحج ..

وربما كان هذا العرض هو العرض الذي نقل الى محمد علي ، فوصلت أخباره الى القاهرة ...

ولا نستغرب ، بعد هذا ، أن تكون وساطة الشريف غالب لعقد الصلح ، من الأسباب التي دعت محمد علي إلى عزله عن الشرافة ، خوفاً من قيامه بدور جديد مريب ..